دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



السنة السادسة والستون - العدد 445 - جمادى الأولى 1445 هـ/ دجنبر 2023 م

جهود علماء الغرب الإسلامي في خدمة الحديث النبوي الشريف

الجهود الحديثية للعلامة الصوفي سيدي محمد بن محمد الحجوجي الحسني التجاني

ذ. عدنان زُهار
أستاذ باحث - الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، لاسيما سيدنا المصطفى، أما بعد:

سابقة حقها أن تكون لاحقة

من غريب ما اشتهر في بعض الأوساط العلمية -في الأزمنة المتأخرة-، وتناقلته الآذان عن الألسن، وصدقته العقول دون تمحيص ولا تحقيق، وروَّجه العامة، حتى صدقه بعض الخاصة، وسُمع من منتسبين للعلم، ووُجد في مؤلفات بعض المترسمين، قولُ القائل: إن الصوفية لا حظ لهم في العلوم الشرعية، وهم أبعد الناس عن علوم السنة والحديث رواية ودراية. وشِبهُ هذا الزعمِ الباطل، المخالف للحقيقة والواقع، والناطقِ زورا، مما لا يوافق الحقائق، ولا يقبله عاقل.

بل لو قيل: إن علوم الظاهر- حديثا ولغة وفقها وأصولا ومنطقا وتفسيرا وتاريخا- لولا الصوفية ما بقي لها أثر، ولولا جهودهم لاندرس أصلها وغبر، لما أبعد ولا بالغ، بل يكون إلى الصواب الذي يشهد له التاريخ أقرب، وبالحقيقة التي لا تخفيها المزاعم أولى وأحق.

ولهم في علم الحديث أثرٌ خاص وجهد متيمز، يزيد فضلا ويمتاز درجة عما حققه علماء الحديث أنفسُهم وقعدوه، كما يجده الممارس لصناعة الحديث عموما، ولكتب الصوفية خصوصا[1].

1 - انظر رسالتي "جهود السادة الصوفية في خدمة الحديث النبوي رواية ودراية"، المطبوعة بدار الرشاد الحديثة مع جزء "نبذ الفرقة بتضعيف حديث السبعين فرقة"، عام 1438هـ.

قال الإمام عبد الوهاب الشعراني في «العهود المحمدية»[2]: أُخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لا نتهور في رواية الحديث، بل نتثبتُ في رواية كل حديث نرويه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا نرويه عنه إلا إن كان لنا به رواية صحيحة.

وكان سيدي علي الخواص يقول: لا ينبغي لفقيه أن يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثا، إلا إن كان له به علامةٌ يعرف بها أن ذلك من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إما من طريق النقل، وإما من طريق سؤاله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك الحديث، وقولِه: هو من كلامي يقظة ومشافهة، هذا كله فيما كان ضعيفا من طريق النقل، أما ما صح من طريق المحدثين واستُحسن، فلا يحتاج إلى سؤاله صلى الله عليه وآله وسلم فيه.

ثم قال: وسمعت شيخنا شيخَ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إنما قال بعض المحدثين: أكذبُ الناسِ الصالحون، لغلبة سلامة بواطنهم فيظنون بالناس الخيرَ، وأنهم لا يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمرادهم بالصالحين المتعبدون، الذين لا غوص لهم في علم البلاغة فلا يفرقون بين كلام النبوة وغيره، بخلاف العارفين، فإنهم لا يخفى عليهم ذلك، حتى إن بعضهم كان يعرف صوت الشريف من غيره من وراء حجاب، لكونه من رائحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.اهـ

وقد منَّ الله عليَّ بتمييز كلام النبوة من غيره من حيث حلاوةُ التركيب العلمي، فإنه لا أحد يقدر على فصاحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فربما سمع الصحابي شيئا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذهب عنه حفظُ بعض اللفظ، والمعنى موفورٌ في قلبه، فيُكمل لنا الحديث بلفظه هو، فأعرفه بركاكة تركيبه، وربما ظن بعض المحدثين أن ذلك الحديث موضوع، والحال أن الوضع إنما هو في مثل لفظة ونحوِها، وأصلُ الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فتعلَّمْ يا أخي علم الحديث لتَخرُج من الوقوع في الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو بغير قصد، والله تعالى أعلم. اهـ

التجانية وعلوم الشريعة

والطريقة التجانية التي أسس أركانَها العارف بالله سيدي أحمد بن محمد التجاني المتوفى عام 1230هـ رحمه الله، اشتهر عند الخاص والعام أنها طريقة العلماء، وهي كذلك طريقة جامعة بين التربية الأخلاقية والتسليك الروحي والعلم الشرعي، ولم يمض مائة عام على وفاة شيخها المؤسس رضي

2 – العهود المحمدية، ص: 508.

الله عنه، حتى انفجرت معالم العلم الظاهري والباطني على أهلها، فلم تُعرف طريقة مثلها في عدد العلماء، ولا في نجابتهم وعلو كعبهم في كثير من الفنون العقلية والنقلية.

فإن أصول الطريقة وفروعها منضبطة بميزان الشريعة راجعة إليها محكومة بها، قال الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه، كما في «جواهر المعاني»[3]: اعلم أن التصوف هو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن، من حيث يرضى لا من حيث ترضى. اهـ

وقال أيضا، كما في "الجواهر"[4]: لنا قاعدة واحدة عنها تنبني جميع الأصول، أنه لا حكم إلا بالله ورسوله، ولا عبرة في الحكم إلا بقول الله وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وإن أقاويل العلماء كلها باطلة إلا ما كان مستندا لقول الله أو قول رسول الله صلى الله عليه وآله سلم. اهـ

وقال رضي الله عنه، كما في «الإفادة الأحمدية»[5] لمولاي الطيب السفياني: إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع، فإن وافق فاعملوا به، وإن خالف فاتركوه. اهـ

فهذا ومثله مما حثَّ التجانيين أن يتسلحوا بالعلم، وأن يعتنوا في زواياهم بكل مواده وعلومه ومعارفه، وأن لا يغتروا بغير العلم الظاهر لبلوغ الحقائق الباطنة، فكان من ثمرته أن حُلّوا بالعِلمين معا ظارها وباطنا[6].

العلامة محمد الحجوجي التجاني

ولا زالت الطريقة التجانية تنتج العلماء الربانيين، ويظهر في زواياها يوما بعد يوم عدد من الفقهاء العالمين العارفين، في بلاد المغرب وفي بلاد المشرق على حد سواء، حتى إذا انتبه غيرُ التجانيين لسر الله فيهم، تقلدها كثير من علماء الطرق الصوفية الآخرين، وانتحلها جماعة من أعيان المدارس العلمية غير الصوفيين، فتفجرت أرضها بالعلم وسحت سماؤها بالمعرفة وسالت أوديتها بالفهم، فظهر النوابغ فيها، وتميزوا وبرزوا، وشُدت إليهم الرحلات، وطلبت منهم الإجازات، وألفوا جياد التصنيفات، بما لا مثيل له في تاريخ التصوف، وبين طرقه السُّنية السَّنية.

ومن أركان العلم في الطريقة التجانية، العالمُ الجهبذ الشريف سيدي محمد بن محمد الحجوجي الحسني رحمه الله.

3 - **جواهر المعاني**، ص: 177.

4 - نفسه، ص: 301.

5 - **الإفادة الأحمدية**، ص: 16.

6 - تنظر رسالتي **"جهود السادة التجانيين في خدمة العلوم الشرعية"**، التي طُبعت ضمن أعمال ندوة المؤتمر التجاني الرابع المنعقد بفاس عام 2014م.

وقد ترجم له جماعة من المؤرخين والعلماء المحدثين، منهم عبد السلام بن سودة في «إتحاف المطالع»[7]، وفي «سل النصال»[8]، وغيره، بل للحجوجي ترجمة لنفسه مخطوطة ذكر فيها بعض مؤلفاته...

فهو المحدث الفقيه الشيخ مُحمد بن مُحمد بن المهدي الحجوجي، وُلد بمدينة فاس سنة 1297هـ، وبدأ مُبكراً بطلبِ العلم، فحفظ كثيراً من المتون بعد القرآن الكريم، ثم التحقَ بجامع القرويين سنة 1315هـ، وتخرجَ فيها بعد أن برع في علوم القرآن والحديث خاصة، والفقه والتفسير واللغة.

وكان قد تلقّى العلم عن كبار علماء المغرب آنذاك، منهم: المحدث السيد محمد بن جعفر الكتاني، وشيخ الجماعة أحمد بن محمد ابن الخياط، والعلاَّمة عبد المالك بن محمد العلوي الضرير، والعلاَّمة أحمد بن المأمون البلغيثي، والمُحدث الشهير الشيخ أبو شعيب الدُكالي، وغيرهم.

توفي - رحمه الله - سنة 1370هـ، وتركَ تراثا كبيرا من مؤلّفاته، والتي تزيد على التسعين مصنّفاً، يقول بعض الباحثين: «إنّ مؤلّفات الحافظ الحجوجي، خاصة في علم الحديث، تتميّز بدقة العبارة، وسعة الاطلاع، وحسن التتبع، وحرية الفكر، مع النقد والترجيح والاستدراك، فهو محدث بحاثة، وحافظ ناقد، وبصير بما يكتب ويبحث فيه، كما أنه - رحمه الله - نزيه القلم، عفيف اللسان، لا يلمز بسوء، ولا يعرض بأحد، ملتزم بعقيدة أهل السنّة والجماعة في الصحابة، معظم لسلف الأمة وعلمائها».

الجهود الحديثية للعلامة الحجوجي

ومما تميز به العلامة الحجوجي عن علماء زمانه، اعتناؤه الكبير بعلوم الحديث رواية ودراية، حتى إنه ألف فيها مؤلفات لم يسبق إليها، وقد أعانه على ذلك شيئان:

- حبُّه لهذا العلم الجليل، النابع من حبه بمن تعلق به- كباقي التجانيين وأفراد الأمة أجمعين- وهو سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- خَلوتُه أو شبه خلوتِه بمدينة دمنات التي استقر فيها آتيًا إليها من فاس، وبانيا فيها زاويته الشهيرة، ومتجردا لتأليف المؤلفات وتعليم العلم للطلاب.

وهذه إلماعة لمؤلفاته الحديثية، مُبَوَّبَةً حسب مباحثها المختلفة، تُظهر قيمته العلمية واهتماماته الحديثية رحمه الله.

7 - **إتحاف المطالع**، 2/ 526.

8 - **سل النصال**، ص: 143.

الشروح الحديثية

- كتاب «**الحلل السندسية المحلية للفوائد الجلية البهية**»، وهي حاشية على شرح العلامة جَسوس على «الشمائل المحمدية» للإمام الترمذي، تتبع فيها تراجم رجال الحديث، وذكر فيها كثيرا من فوائده، واعتنى بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مظانها من كتب السنة المسندة، وتقع في أربعة أجزاء ضخام، من القالب الكبير، مازالت مخطوطة لم تطبع بعد.

- كتاب «**المنح الوهبية، في شرح المنظومة المسماة: تلخيص الشمائل النبوية**»، وهو شرح على منظومة السيد عبد الرحمن العراقي في الشمائل النبوية، طبعت في مجلد بتحقيق الأستاذ عبد الإله شامة، بدار الكتب العلمية.

- كتاب «**إرشاد المقيم والساعي لفهم أحاديث الشهاب القضاعي**»، وهو شرح في غاية الجودة والنفاسة، مع الاختصار والتحقيق، لكتاب «مسند الشهاب» للقضاعي، مازال مخطوطا في جزأين.

- كتاب «**القول الموجز الفصيح، فيما يتعلق بحديث التنفير من الميل إلى زهرة الدنيا المخرَّج في الصحيح**»، وهو اعتناء منه بحديث الباب، ولم يسبق إليه بجعله شرحا مستقلا، والكتاب مازال في عداد المخطوط.

- كتاب «**رشحات الأقلام التي تُحمد وتُسرد، في شرح كتاب الأدب المفرد**»، وهو مخطوط، كتاب غير مسبوق في شرح «الأدب المفرد» للبخاري.

- كتاب «**هداية الأنام، في شرح كتاب خير الكلام، في القراءة خلف الإمام**» للبخاري، مخطوط في مجلد، لم يسبق إليه.

- كتاب «**نجاح الدارين، في شرح كتاب قرة العينين، في رفع اليدين**» في مجلد، مخطوط غير مسبوق.

- كتاب «**إدراك القصد والمرام، بشرح مسند الدارمي الحافظ الإمام**»، هذا من أنفس كتبه رحمه الله وأكبرها، وهو شرح لـ «مسند الدارمي»، ولم يُعرف له شرح من قبل، حتى اعتنى به العلامة الحجوجي، ووقع له في ثمانية مجلدات.

كتب المشيخات والإسناد

- كتاب «**نيل المراد، في معرفة رجال الإسناد**»، وهو في أربعة أجزاء، ذكر فيها مشايخه في علوم الظاهر والباطن، وأسانيدهم، وإجازاتهم، وأخبارهم، ومؤلفاتهم، ومستفاداته منهم، وقد حققَ ضمن دراسة أكاديمية، نال بها صاحبها درجة الدكتوراه.

- كتاب «**كنز اليواقيت الغالية، في الأسانيد العالية**»، وهو مختصر السابق، طبع بدار الكتب العلمية، بذيل كتابه «المنح الوهبية».

كتب التخريج

- كتاب «**منحة الوهاب في تخريج أحاديث الشهاب**»، وهو تخريج لأحاديث «مسند الشهاب» للقضاعي، وهذا علم انقطع في الزمن المتأخر وأحياه المغاربة، خصوصا السيد أحمد بن الصديق، ومنهم سيدي الحجوجي بهذا الكتاب النفيس وبأشباهه، وقد طبع بتحقيق أخينا الدكتور هشام حيجر، بدار الكتب العلمية، عام 2010م، عن 639 صفحة.

- كتاب «**بغية السائل، في تخريج أحاديث الشمائل**»، وهو كتاب مخطوط، تام، مفيد، اعتنى فيه بتخريج أحاديث الشمائل الترمذية، على طريقة الحفاظ المتقدمين.

كتب المفتتحات والختمات

- كتاب «**افتتاح لصحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري**»، مخطوط، وهو مما لم يسبق إليه في الأعمال الموضوعة على صحيح مسلم.

- كتاب «**نزهة السالك، في ختم موطأ إمام الأئمة وعالم دار الهجرة مالك**»، مخطوط.

- كتاب «**عجالة المحتاج، في ختم حديث صاحب اللواء والتاج**»، وهي ختمة لصحيح الإمام البخاري في كراسة، مخطوط.

كتب الرجال والتراجم -

- كتاب «**فتح القدير في شرح التاريخ الصغير**» للإمام البخاري، وهو في أربعة مجلدات، لم يسبق إليه، ولا عرف في تاريخ التأليف الحديثي، من اعتنى بشرح التواريخ وتراجم الرجال، حتى سبق إليه العلامة الحجوجي رحمه الله، ومازال الكتاب مخطوطا.

- كتاب «**ترقية همة الطالبين، في شرح كتاب الضعفاء والمتروكين**» للإمام البخاري، مخطوط في مجلد، لم يسبقه إليه أحد في موضوعه ومادته.

- كتاب «**نزهة الأذهان، في شرح كتاب المنفردات الوحدان**» لمسلم بن الحجاج، مخطوط في مجلدين، غير مسبوق.

- كتاب «**تذكرة المسترشدين، بشرح كتاب الضعفاء والمتروكين**»، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مخطوط في مجلد ضخم. ولم أر في المصنفين في علم الحديث من اعتنى بمثل هذا الكتاب شرحا.

- كتاب «**سر الرحمن، فيما في مسند الدارمي من تراجم الرواة والقبائل والبلدان**»، وهو مُسْتَلٌّ من شرحه لـ «مسند الدارمي» السابق ذكرُه، وقع له في ثلاثة مجلدات.

خاتمة:

لا يعزب عن نظر المطالع الفطن لهذه الترجمة المختصرة للحجوجي وأعماله الحديثية ما يلي:

1 - تخصصُه في علوم الحديث رواية ودراية بما تفرد به عن كثير من أهل زمانه، مما جعله من المحققين الكبار في علوم الحديث، في زمن كان أكثر اعتناء علمائه بالفقه واللغة والحواشي والشروح المكررة.

2 - اعتناؤه بكتب السنة الشهيرة كـ "الموطأ" لمالك و"صحيح البخاري" و"صحيح مسلم" و"الشمائل المحمدية" للترمذي و"مسند الدارمي".

3 - اعتناؤه بكتب الرجال خصوصا، كـ "الضعفاء والمتروكين" للبخاري، و"التاريخ الصغير" له، ورجال "مسند الدارمي"، وغيرهم، مما يمكن أن يقال بأنه من غرائب التصنيف، خصوصا في الزمن الذي عاش فيه العلامة الحجوجي.

4 - اعتناؤه بما اعتنى به معاصروه من تخصيصه مؤلفات للمشيخات والبرامج والفهارس والأسانيد.

5 - سَبْقِيتُه لكثير من الأعمال العلمية، بحيث يمكن أن أقول: إن تصنيفاته في شروح كتب الرجال تعد ابتكارا في التأليف الحديثي، والله الموفق.